الفراسة

في ملامح الوجه

ليست الفراسة علماً باصول بل هي غريزة تقوى بالمزاولة
في الانسان غرائز عجيبة لا يفطن لها

يزعم علماء الفراسة ان في ظواهر تركيب الرأس وتكوينه إمائر تدل على سجايا صاحبه وأخلاقه . وقد توسعوا في ذلك فزعموا انها تدل على ما كان ره الماضية والمستقبلة وربما تطرّف بعضهم وجعل الفراسة في مقام النبوءة . و يزعم قرّاء اليد ان الخطوط التي فيها تدل تلك الدلالة ايضاً وتنبئ عن طوارئ الانسان الماضية والمستقبلة

ولهؤلاء واولئك تعاليل علمية لا ينفر منها العقل لان مرجعها كلها الى التأثير المتبادل بين العقل والدماغ والمجموع العصبي وظاهر البدن ولا سيما في الرأس واليدين . أي ان لبُنية الجسم تأثيراً على العصب و بالتالي على العقل وللعقل تأثيراً على العصب و بالتالي على الجسم — الامر الذي لا خلاف فيه عند الفسيولوجيين وعلماء العقل . وعليه لا يُنكر ان بين الافعال والانفعالات العقلية من جهة و بين تكاوين الجسم ولا سيما مواضع الحس الشديد كالرأس واليدين من جهة اخرى اتصالاً دائماً وتفاعلاً متبادلاً . وقول اليازجي بهذا المعنى

انما نحن في اختلاف عقولٍ مثلما نحن في اختلافِ وجوهِ

حقيقة علمية راهنة . فلكل بنية مزاج وعقل ولكل عقل مزاج و بنية ولكل مزاج عقل و بنية . فدلالة ظواهر البدن (الرأس واليدين مثلاً) على المزاج والعقل و بالتالي على الاخلاق غير مستحيلة بل هي ممكنة أو راجحة او مؤكدة

وربما كانت فيها دلالة على حالة الانسان في الماضي والمستقبل ايضاً . ولكن الاهتداء الى قواعد هذه الدلالة هو موضع النظر ولا يزال في مقام الحدس والتخمين لا في منزلة الحق اليقين . وربما بقي كذلك الى ما شاء الله ذلك لان ضبط تلك الاماثر والملامح والاسارير والنواتئ في قواعد مقرّرة مطّردة يستحيل — ولا اقول يكاد — لاختلاف الاشخاص بكل أمر

خذ مثلاً ,, خط الحياة ،، في اليد فقد يكون في يد واحد اقصر منه في يد آخر لاختلاف بنية الجسمين: هذا رقيق وذاك بدين مع ان عمريهما يتعادلان تقريباً . فالحكم على مدة العمر بالنظر الى طول خط الحياة في الكف فقط لايكون مضمون الصواب . فلا بد ايضاً من ملاحظة البنية والمزاج وغير ذلك من الاختلافات بين الاشخاص . واذا جئنا نقيد كل قاعدة (كقاعدة خط الحياة مثلاً) باعتبارات مختلفة حسب اختلاف الاجسام والامزجة وغير ذلك أصبحنا كأننا بلا قاعدة لاننا نضطر حينئذ ان نضع لكل فرد قاعدة . فكأننا لم نعمل شيئاً لاننا لم نستطع ان نجمع حقائق متشابهة لنصفها تحت نوع واحد نجعله قاعدة

ومن هذا التمثيل الآنف الذكر يفهم ان قواعد الفراسة وقراءة الكف غير مقرّرة ولا هي مطردة فقد تصدق على فرد دون آخر لما تقدم من التعليل . فاذاً لا نستطيع ان نعتبر الفراسة أو قراءة الكف علماً أو صناعة ذات قواعد مطردة وان كان اساسهما التعليل العلمي لان حصر الحقائق والاستقراآت العلمية التي بني عليها هذان العلمان مستحيلٌ تقريباً . وربما كانت قواعدهما تقريبية قليلاً فتصدق بعض الاحيان القليلة

الاستدلال الغريزي

واذا كان قد ثبت ان للافعال والانفعالات النفسانية تأثيراً على الجسم

حتى ان هذا التأثير يظهر بالاكثر في ملامح الوجه وتكوين الرأس وان اعمال الجسم تؤثر على العقل ايضاً أفلا تتسنى لنا وسيلة للاستدلال على اخلاق الاشخاص واطوارهم من فحص ملامحهم وآثار افعال عقولهم في اجسامهم ؟

اقول لا نعدم وسيلة لذلك بل نستطيع شيئاً من الاستدلال المذكور . ولكن ليس بواسطة قواعد واصول كما هو مزعوم في علمي الفراسة وقراءة الكف بل بقوة الاستدلال الغريزي التي تقوى وتنمو بالمزاولة لا بالتلقن والتعلم والدراسة . وتمهيداً لذلك نبين للقارئ ان في الانسان غرائز دقيقة جداً غريبة الفاعلية قلما ننتبه لها لانها تعمل اعمالها من غير اجهاد العقل ولا اعمال الفكر أو الروية لانها على طول عهد المزاولة اصبحت فينا عادة او سجية أو غريزة

مثال ذلك القراءة . لما كنت مبتدئاً بتعلم القراءة كنت لا تستطيع ان تلفظ الحرف (قل ش مثلاً) قبل ان تتصوّر كل شكله وخطه المتلوّي ونقطه . ثم لما تعوّدت تلفُّظ جميع الحروف واخذت تتعلم لفظ الكلمات لم تكن تستطيع ان تلفظ الكلمة مهما كانت بسيطة قبل ان تنعم النظر في كل حرف من احرفها ولهذا كنت تقرا ببطءٍ كلي . ولكن على طول المزاولة اصبحت تلفظ الكلمة من مجرّد وقوع نظرك عليها مهما كانت عديدة الاحرف . وعلى طول الممارسة اصبحت تدرك الكلمة ولفظها ومعناها باسرع من لمح البرق حتى لم يعد لسلك يستطيع ان يجاري إدراكك . ولهذا صرت تفضل ان تقرأ ساكتاً أي من غير تلفُّظ لانك تسرع بالقراءة اكثر فترى مما تقدّم انك على طول المزاولة اصبحت تقرأ بسرعة غريبة من غير ان تنعم النظر في كل حرف يقع عليه بصرك وهيهات ان تلتبس عليك لفظة باخرى مهما تقاربت احرفها و يندر ان تمرّ عليك غلطة في الطبع مهما كانت طفيفة من غير ان تلاحظها . ذلك لان بصرك يستوعب كل اشكال الحروف بسرعة غريبة لا تكاد تصدقها انت نفسك . فانت تقرأ وتفهم المعنى

من غير ان تعمل فكرك في تحقيق كل حرف أو كل كلمة كأن القراءة اصبحت غريزة فيك فتقرأ من غير تكلف أو معاناة أو اجهاد فكر

وليس ذلك فقط تمثيلاً على غريزية القراءة بل هناك برهان آخر اعجب وهو انك احياناً كثيرة وانت تقرأ ينتقل فكرك الى موضوع آخر خارج عن الموضوع الذي تقرأه ويُغرب ذهنك فيه حتى تكاد تنسى انك تقرأ ولكنك لا تزال تقرأ حتى اذا كنت تتلو ما تقرأه (أي تتلفظ الكلمات) لا يلاحظ سامعك انك شارد الفكر اذ لا يجد غلطاً في قراءتك فتكون انت تقرأ وغيرك يفهم . وفي هذه الحالة تكون عيناك ولسانك منشغلة بالقراءة حسب العادة ويكون فكرك منشغلاً بشيء آخر . ذلك لان القراءة أصبحت كغريزة فيك . ومتى انتبهت لنفسك وشعرت انك تفتكر بغير ما تقرأ لا تعود تذكر ما قرأت ولا تعلم كيف كنت تقرأ وفكرك شارد . وقد تستغرب ذلك من نفسك اذا حاولت تعليل هذا الامر . ولكن يندر ان يحاول احد تعليل ذلك لتكراره وتواتره وان كان غريباً . ومن طبع المرء انه لا يحاول تعليل الامر الغريب الا اذا كان نادراً

وقس على القراءة الموسيقى فان اللاعبين على الآلات الموسيقية متى مهروا فيها بعد المزاولة الطويلة لا يعودون يفكّرون قط في كيف يعزفون . فاللاعب على الكمنجة مثلاً لا يفكر قط في كيف ينقل اصابعه بل يكفي ان يتخيل اللحن واصابعه تطاوع هذا التخيل من غير اعمال فكر . وكثيراً ما يشرد فكر العازف في موضوع آخر ويظل عزفه مستقيماً خلواً من الخطاء . ذلك لان العزف صار كغريزة فيه

ومن ذلك اننا نقدر ان نميز الاشخاص الذين نعرفهم من مجرد سماعنا اصواتهم في الكلام من غير ان نراهم . ذلك لاننا ألفنا هذه الاصوات وصرنا نميز

بين اصحابها مهما تشابهت لان فرقاً دقيقاً جداً بينها لا نعرف كيف نصفه يكفي لان يدلنا على ان صاحب هذا الصوت فلان وصاحب ذاك فلان

واغرب من ذلك اننا نقدر ان نميز اصحابنا وجيراننا من مجرد وقع اقدامهم من غير ان نراهم وذلك اذا الفنا مرورهم كل يوم من جنب منازلنا وكنا نسمع وقع اقدامهم . اقول ذلك بناءً على اختباري الشخصي فاني منذ الحداثة كنت اعرف كل من كان من جيراننا يمرُّ من جنب منزلنا من غير ان اراه بل من مجرد سماعي خطواته ووقع اقدامه ولم أخطئ مرّة . واذا سألتني كيف كنت تعلم ذلك وما الفرق بين خطوات فلان وخطوات غيره اقول لك لا اعرف . اشعر ان هناك فرقاً بين خطوة زيد وخطوة عبيد ولكن لا أقدر ان أصفه لك بحيث تستطيع انت ان تميزه جيداً وتقول هذه خطوة زيد وتلك خطوة عبيد من مجرد مرورهما امام شباكك من غير ان تراهما . ذلك لان هذا التمييز ليس الا غريزة تقوى بالمزاولة

وهناك امور عديدة دقيقة جداً نميزها بقوة الغريزة من غير اعمال فكر أو روية ولا نعرف كيف نستطيع ذلك . ومن هذه الامور الحكم على اخلاق الاشخاص واطباعهم من مجرد نظرنا الى ملامحهم . وهو ما اسميه ,, الفراسة الغريزية ،، أي التفرس من غير اعتماد على قواعد أو أصول معينة بل لمجرد الملاحظة الشخصية والعادة . وأي الناس يستطيع هذه الفراسة واذا تعمّد مزاولتها يبرع فيها

تعليل الفراسة الغريزية

بقي ان يعلم القارئ الكريم تعليل هذه ,, الفراسة الغريزية ،، أي بيان كيف ان أي شخص يقدر ان يتفرّس ويحكم على اخلاق الاشخاص ويدركها من غير ان يستند على قواعد واصول مقرّرة . هو مدار مقالنا هذا

وبيانه فيما يلي :

قلنا ان للافعال والانفعات النفسانية تأثيرات على الجسم تظهر فيه . ولا مشاحة في هذا القول ونحن نرى ان سحنة المرء وهو غاضب غير سحنته وهو باسم وغيرها وهو حزين وغيرها وهو يائس الى غير ذلك . هذا في الانفعالات النفسية الوقتية المتقلبة المتغيرة . واما في الامزجة الثابتة فنرى ان سحنة البشوش الطبع غير سحنة العبوس وسحنة النزق غير سحنة الحليم الى غير ذلك

ومما تقدم نستنتج ان لكل خلق أو طبع لمحة في الوجه خاصة به وتدل عليه وتعبر عنه كما ان لكل معنى لفظة تدل عليه . ولكن اذا شئنا ان نصف لمحة كل خلق أو طبع لكي نستطيع ان نلقنها لاولادنا مثلاً بحيث يمكنهم ان يفهموا اخلاق الشخص الذي يرونه لاول وهلة استحال علينا وعليهم ذلك لان هذه الملامح دقيقة جداً وعديدة جداً وملتبسة بعضها ببعض فلا بد لهم ان يزاولوا ملاحظتها حيناً بعد آخر عهداً طويلاً لكي يستطيعوا من انفسهم ان يحكموا على اطباع من يتعرفونهم جيداً و يصدق حكمهم — كما يزاولون القراءة طويلاً حتى يستطيعوا اخيراً ان يقرأوا جلياً وصواباً من غير اعمال ذهن أو روية

واذا كان لكل طبع أو خلق أو مزاج او مزية عقلية لمحة في الوجه خاصة به فبالطبع كانت لنا هذه القضية وهي ,, اذا تشابهت الاخلاق تشابهت الملامح وبالعكس ايضاً ،، أي اذا تشابهت الملامح حكمنا بتشابه الاخلاق وكان حكمنا قريباً من الصواب ولا سيما اذا كنا دقيقي النظر في استيعاب كل الملامح أو معظمها . وهذا الحكم على الاخلاق يصدق ايضاً على العواطف والامزجة والمزايا العقلية الخ

لكل منا اصحاب ومعارف كثيرون وقد عاشرنا بعضهم كثيراً وبعضهم قليلاً . وبقدر ما عاشرناهم وعرفناهم درسنا اخلاقهم وعواطفهم واطباعهم

وامزجتهم وقواهم العقلية واميالهم وسائر احوالهم النفسانية . وفي الوقت نفسه انطبعت في اذهاننا ملامحهم بكلياتها وجزئياتها كما انطبعت فينا حروف الهجاء والالفاظ والعلامات الموسيقية والاصوات الى غير ذلك من المؤثرات الخارجية حتى ادق دقائقها . انطبعت في اذهاننا دقائق تلك الملامح وان كنا نشعر اننا عاجزون عن تفصيلها واعرابها وتمييزها بعضها عن بعض لكي نصفها . انطبعت ورسخت حتى صار في اذهاننا لاخلاق كل شخص ملامح خاصة كما ان في اذهاننا لكل معنى عبارة . لم اقل انه صار في اذهاننا لكل خلق لمحة لان الاخلاق في الشخص الواحد متعددة وممتزجة وبالتالي تظهر ملامحه المعبرة عن اخلاقه ممتزجة ايضاً . وهذا هو السر في تعذر تمييزها بعضها عن بعض وبالتالي هو السر في استحالة أو تعذر تقييد تلك الملامح في قواعد واصول للدراسة والحكم علمياً فيها

ولما كنا نعرف اشخاصاً كثيرين كما قلنا — نعرفهم باخلاقهم وملامحهم التي تدل عليها صرنا اذا رأينا شخصاً جديداً فمن مجرد نظرنا الى ملامحه نعرف شيئاً من اخلاقه كثيراً أو قليلاً بحسب طول اختبارنا السابق ومزاولتنا عشرة اصحابنا ودرس اخلاقهم . وقلما تخطئ معرفتنا هذه . ولكن اذا فكرنا في كيف عرفنا ذلك أو على ماذا بنينا حكمنا فلا ندري لاننا لم نستند الى قاعدة بل نشعر اننا حكمنا كذلك بقوة الغريزة

والحقيقة التي هي تعليل هذه الغريزة اننا لما رأينا ذلك الشخص الجديد وحكمنا على داخليته أي على اخلاقه ومزاجه واميالة تمثل لذهننا شخص من معارفنا السابقين هو اقرب مشابهة بالملامح لهذا الشخص الجديد . يتمثل ذلك الاقنوم (اقنوم الشخص الذي نعرفه) بملامحه واخلاقه وعواطفه فننسب هذه الاخلاق والعواطف للشخص الجديد بناء على ما رأيناه فيه من الملامح التي الفناها في الصديق القديم معبرة عن تلك العواطف

مثال ذلك أعرف زيداً له لمحة قلة البشاشة وطبع قلة المزاح فاذا رأيت

عمراً لاول مرّة ولاحظت انه يشبه زيداً بقلة البشاشة حكمت لاول وهلة انه قليل المزاح ذلك لان بعض ملامحه (وهي تمثل عدم البشاشه مثلاً) التي تشابه بعض ملامح زيد استحضرت في ذهني قلة المزاح التي عرفتها طبعاً في زيد ــ قد يحضر في ذهني هذا القياس من غير ان تخطر لبالي شخصية زيد . لان ملامحه هذه التي تقررت في ذهني كدليل على قلة المزاح صارت تستحضر في ذهني ايضاً هذه الخلة كلما رأيت تلك الملامح في وجه أي انسان كما استحضرتها حين رأيت وجه عمرو

على ان هذا المثال غير دقيق كالواجب وانما مثلته ايضاحاً لما تقدم من تعليل ,, الفراسة الغريزية '' التي تجتمع في عبارة موجزة هكذا : ,, الملامح التي الفناها دليلاً على اخلاق وعواطف خاصة بها تستحضر في ذهننا هذه الاخلاق والعواطف كلما رأيناها (أي رأينا الملامح) في وجه أي انسان ''

تفاوت الناس في قوة التفرّس

هذا هو تعليل ,, الفراسة الغريزية '' على ان الناس متفاوتون في قوة هذه الغريزة فبعضهم اقدر من بعض في اصابة الحكم بموجبها لانها تحتاج الى أمرين : الاول الذكاء الطبيعي في التمييز والاستدلال وحدة البصيرة في استيعاب ادق الملامح . والثاني طول الاختبار ووفرة العشرة . ولهذا ترى ان الاشخاص الذين عركهم الزمان وعاملوا صنوفاً من البشر في احوال مختلفة اصدق حكماً من سواهم على اخلاق الاشخاص ولاسيما اذا كانت اعمالهم او وظائفهم تقضي عليهم باستطلاع دخائل الناس كقضاة المحاكم والشرطة السريين والمحققين واضرابهم

ثم اذا كان بعض الناس يعكف على مزاولة ,, الفراسة الغريزية '' يبرع فيها وتكثر اصابة حكمه حتى في ادق الامور . والحكم بموجب الفراسة الغريزية عندي اقرب الى الصواب من الحكم بموجب علمي الفراسة وقراءة اليد ولا سيما اذا كان المرء يزاولها ويقوّي هذه الغريزة فيه . وقد حاولت مراراً (على سبيل التسلية) ان اقرأ اخلاق بعض الاشخاص الذين لا اعرفهم من مجرد انعام النظر

في صورهم الفوتوغرافية معتمداً على ما اتوسمه من ملامحهم في تلك الصور . فكنت أصف اخلاقهم لمن يعرفونهم فكان قولي يصدق في كثير من الامور

التصنع يضلُّ المتفرّس

وكثيراً ما تضل ,, الفراسة الغريزية ،، عن الصواب بسبب ان الاشخاص الذين نتفرّس فيهم يظهرون خلاف ما يبطنون وقد مارسوا المواربة والمراآة والتظاهر فصارت ملامحهم المزوّرة خلقةً فيهم وهي لا تعبّر عن حقيقة اخلاقهم وعواطفهم واميالهم . مثال ذلك ترى زيداً سمح الوجه طلق المحيّا ملتوي الرقبة فتخال انه رحوم القلب شفوقه ولكن عند الاختبار تجد انه قاسٍ ظالم يستحل تضحية غيره لاجل مصلحته الشخصية وان ملامحه تلك قد غشتك وذلك لانه عوّد نفسه ان يتظاهر بالاشفاق والرفق بالناس فألفت سحنته تلك الملامح المزوّرة وانطبعت فيها

لهذا كثيراً ما نضلُّ الحكم على الاشخاص المتصنعين المرائين . وكثيراً ما يصدق حكمنا على المخلصين والساذجين

وأوضح برهان على امكان تزوير الملامح والتصنع في اظهار معكوس الاخلاق ما نراه من الممثلين فانهم يمارسون احياناً تمثيل اخلاق غير اخلاقهم فتنطبع في سحنتهم الملامح التي تمثل تلك الاخلاق وقد تثبت فيها . وربما كانوا اقدر من غيرهم على تغيير ملامحهم واخفاء سرائرهم

وربما كان المجرمون الذين مارسوا الجرائم طويلاً أقدر من الكل على التظاهر بخلاف حقائقهم لانهم يضطرون الى التصنع لاخفاء جرائمهم فيصبح خلقةً فيهم

درس الماضي

وقد يمكن لمزاول الفراسة الغريزية ان يفهم شيئاً من ماضي الاشخاص

لمجرّد انعامه النظر في ملامحهم لان كثيراً من تأثراتنا وانفعالاتنا الماضية تترك آثاراً على وجوهنا . فاذا رأيت كهلين الواحد أغضن الوجه مجعّد الجبهة والآخر مصقولها قلتَ هذا كان قليل الهموم والاحزان في ماضيه وذاك كان كثيرها . على ان الحكم على الماضي أصعب وأقل صواباً من الحكم على الاخلاق والعواطف الحاضرة . ولعل المزاولة تسهل الصعب

واذا كان سلوكنا في هذه الحياة يترك آثاراً على جباهنا ومحيانا وتبقى هذه الآثار شهادة على ماضينا فاحرِ بنا ان يكون سلوكنا حسناً وانفعالنا بهيجاً ساراً لكي تبقى ملامحنا جميلة

نقولا الحداد

الادبيّات

تتمشى على نواميس الطبيعيات

الجاذبية والدافعية
واحدتان في العوالم الطبيعية والعقلية والاجتماعية

اذا حللنا الافعال النفسانية في الانسان والاعمال الادبية في الاجتماع البشري حتى تتضح لنا شرائعها ونواميسها وجدنا ان هذه النواميس تتشابه جداً مع النواميس الطبيعية حتى اذا تعمقنا في البحث عن اصولها وجدنا ان النواميس الاصلية تكاد تكون واحدة للعالمين الادبي والطبيعي معاً

الجذب والدفع في الطبيعيات

اذا حلّلت القوات الطبيعية على اختلاف انواعها وجدتها كلها ترجع الى قوتين متقابلتين — الجذب والدفع

خذ مثلاً الاعمال التي تُعمل بقوة انحدار الماء كالمطاحن المائية المعوّل عليها